تضافر البعد التاريخي والسردي في رواية (كان الجرح وكان يا ما كان) للسائحي.

د. عبد الحق منصور بوناب.
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة. الجزائر

ملخّص:

قدّم السائحي رواية **(كان الجرح وكان يا ما كان)** كنص شاهد على أحداث الثورة التحريرية، و يأتي هذا العمل في مجال الكتابة السردية، إذ يتشكل العنوان مفتاح الرواية الأساسي من جملتين؛ الأولى (كان الجرح) تحدّد طبيعة الحدث والمتمثل في إصابة بطل الرواية برصاصة طائشة خلال التدريب على استعمال السلاح بالحدود التونسية، والاستعداد للمشاركة في الثورة التحريرية، ثم يكتمل العنوان بجملة متمّمة للأولى ومفسّرة لها (وكان يا ما كان)، وإن كانت معاناة البطل من الآلام جرَّاء جراحه، فهي في الحقيقة تتضمن معاني أخرى تصب في مجال القصص التاريخي التراثي.

تبدأ هذه الرواية بتحديد الإطارين الزمني والمكاني، فهي مذكرات جريح عانى الصراع بين الحياة والموت، وهي صورة حية عن مجتمع يعيش نقلة نوعية في حياته؛ إذ تتدفق الأضواء وتجري الدماء غزيرة على تراب الوطن الغالي من أجل الحرية والاستقلال، وأحداث الرواية جرت داخل غرفة بمستشفى مدينة الكاف التونسية في الفترة ما بين11 فبراير (جانفي)1957م والثلاثين منه.

تغترف الرواية من التاريخ أحداثه وتعيد صياغتها وتوظيفها وفق أهداف الكاتب ومواقفه بل إنّ بعض الروايات قد وظّفت (فلسفة التاريخ، وقد ركز الكتّاب الاهتمام على إبراز وعي الإنسان للتاريخ من خلال توضيح الموقف منه وإسقاطه على الحاضر وإسقاط الحاضر عليه).[1]

يبدأ الراوي حكيه بسؤال كبير يعبّر فيه عن الحيرة وصعوبة الموقف بقوله: ماذا أريد أن أكتب؟ ثم يعود إلى الوراء فيسترجع فترة وجيزة قضاها بالمستشفى وهو يعاني شبه غيبوبة: "إنني أتذكَر كل شيء، ولكنه يبدو في ضبابية كثيفة فلا أستطع أن أحدد أوقات اليقظة من لحظات النوم. ما شكل جروحي؟".[2]

إنّ الراوي البطل يضيف إلى السؤال الافتتاحي سؤالاً استطلاعياً، فهو لا يعرف طبيعة جروحه ومدى خطورتها، وشيئا فشيئا ينتقل إلى وصف جوهر الحدث المتمثل في وصف أحداث الثورة التحريرية إذ أصيب خلال التحضير للمشاركة فيها برصاصة طائشة، ولولا تفكيره في المشاركة فيها لما أصبح نزيلاً في المستشفى، وهنا يضيف سؤالاً أساسياً ومحورياً يبرز طبيعة الحدث بقوله: أيّ قيمة لهذا الدّم؟ ثم يقوم بالإجابة عن السؤال محدداً القيمة الجوهرية للتضحية بالنفس والدم والعرق، والمتمثلة في استقلال الجزائر، فالدم المراق يستمد قيمته من الحدث الذي أريق من أجله، إنّ الراوي يتكلّم وينظّر ويطرح كثيراً من الأسئلة، ثم يقوم بالإجابة عنها محدداً طبيعة المعركة وجوهر الصراع بين أبناء الجزائر وبين المستعمرين الغاصبين، ومن بين تلك الأسئلة التي يقوم الراوي بطرحها تساؤله عن قيمة الموت جرَّاء الجوع والعطش الذي كان يفتك بأبناء الجزائر قبل الثورة: (أيّ قيمة لهذا الموت؟ لقد عاش شقياً ومات شقياً أكثر من قبل)[3]، وهو بهذا السؤال يمهِّد للدعوة إلى الثورة على المستعمرين موظفاً الخطاب العادي العامّي (الموت واحدة والذل علاش).[4] فما دام الحدث المتمثل في الموت عنواناً لنهاية الوجود في هذا

العالم مهما كانت كيفيته؛ فوق فراش وثير أم في قصر أم كهف أم صحراء أم بحر، فلا مسوِّغ لقبول الذّل والهوان خصوصاً وأنّ الراوي هنا صاحب حق وقضية، ثم يتوالى سرد الأحداث بتقنية الرجوع إلى الخلف (الاسترجاع) مطعّمة بالأسئلة بعد كل إضاءة، وبعد كل إجابة عن سؤال يأتي سؤال آخر، الغرض والغاية منه تشكيل صورة كلية للحدث المتمثل في إصابة الراوي برصاصة وما خلَّفته تلك الإصابة في نفسه وجسده من آلام ومعاناة، وتتوالى الأسئلة والإجابات مقتضبة أحياناً ومفصَّلة أحياناً أخرى: هل فقدت رجلي؟ لماذا أصبت يارب؟ ماذا أريد الآن؟. إنّ الراوي في إجاباته عن الأسئلة يقدّم رؤيته وموقفه الواضح بجلاء، فقد كان مستعداً للتضحية بحياته كلها من أجل الجزائر، إلا أنَّه يتساءل: هل إصابته لكونه يستحق العقاب على ذنب اقترفه ؟وهنا يظهر أثر الدين في الإيمان بحتمية القضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره. إنَّ الراوي يقوم بإخبار القارئ بالأحداث التي تقع له، وهو طريح الفراش بالمستشفى مبرزاً معاناته وآماله : "إنني مشتاق إلى إغفاءة على أحد جنبي... وها أنا ذا أحاول وأحاول ولكن عنائي ذهب سدى... فاكتفيت بإدارة رأسي... مضى الليل مفعماً بالسكون لولا صراخ أحد المرضى من حين لآخر لقد كان يرسل صرخات عالية مشبعة بالألم المرّ الذي يقضي على كل رغبة في النوم".[5] وهو إلى جانب الإخبار بالأحداث يوظف الحكايات الشعبية والأمثال ليصف ليبين الجوانب والأبعاد المختلفة لكل حدث، كما يقوم بتغيير مسار السرد النثري إلى الحكي الشعري وغيرها من الأساليب.

يورد الراوي مقطعاً حوارياً بين مجموعة من الجرحى من داخل إحدى غرف المستشفى، فيصف أحدهم الآخر موظفاً الحكاية الشعبية بقوله: "إنك تشبه ذلك الأبله الذي وجد صبية تبكي فقال لها: أسكتي فسأتزوجك، فلما قلت له: وأمي من يتزوجها، قال لها: ناخذك و ناخذ أمك".[6] هنا استدعى الموقف توظيف الحكاية الشعبية ذلك إنّ الحوار كان يدور حول مخاوف أمّ على ابنها وآمال زوجة في زوجها؛ الأم تخاف على ابنها مخاطر وأهوال الحرب، والزوجة تحلم بأنَّ زوجها سيعود منتصراً، والجمع بين الطرفين وإرضاؤهما شيء صعب، وتحقيق السلامة التي تتمناها الأم والفوز الذي تنتظره الزوجة شيء ليس بالأمر السهل، وما دفع الراوي إلى توظيف الحكاية الشعبية الاستفزاز السافر الذي تعرَّض له من أحد الجرحى الذي

زعم بأنّ أمّ الراوي تستحق غضب الله جراء مخاوفها وقد تكون ماتت لتستريح من مخاوفها، وهذا ما أثار حفيظة الراوي في هذا المقام فشبّهه بالأبله الذي لا يفرّق بين الأمور وأبعادها، ولا يفرق بين الحلال والحرام – ذلك أنَّ أمّ الزوجة تصبح محرّمة على زوج ابنتها حرمة أبدية بمجرد زواجه بابنتها– فحاله في تقدير الأمور كحال الأبله الذي أراد الجمع بين البنت وأمها في زواج واحد.

وتبدو الحكمة والتعقُّل عند بعض المرضى من خلال رضاهم بواقعهم وصبرهم على ما هم فيه، وهذا ما يتجلّى في هذا المقطع "فقال عمار: ماذا بأيدينا يا أخي كل شيء من عند الله، إن المكتوب على الجبين لابد أن تراه العين، كما يقول المثل الشعبي: هكذا شاء الرّبّ الكامل".(7) فالراوي هنا يوظِّف بشكل طبيعي مثلاً شعبياً مفاده أنّ القدر لن يفلت منه أي شخص فكل ما قدر لنا سيصيبنا، وهنا راعى الراوي المقام المناسب لمثل هذا الكلام فعند المرض تكثر عبارات التصبُّر والإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله.

ويستثمر الراوي إقامته بالمستشفى فيقوم بسرد الأحداث والحكايات التي تدور بين المرضى الذين يقاسمونه الغرفة نفسها، ويتولى أحد المرضى سرد حكايات متفرقة، يوظفها الراوي في مسار السرد بحسب الحاجة لتدعيم الموقف وإبراز طبيعة الحدث، ولا يخفى على المتأمل ما في رواية السائحي من طابع حكائي تاريخي وشعبي، من ذلك مثلاً قول الراوي: "كان في قديم الزمان ملك سلطان، وكان له وزير يقوم على ملكه فحينما حدث أمر يقول السلطان للوزير: "يا وزير هات التدبير وإلا رأسك يطير" ولم يحدث للوزير أن عجز عما يطلبه السلطان حتى كان ذات يوم طلب السلطان من وزيره أن يأتيه بجواب عن هذه الأسئلة:

– ما هو أحلى شيء في الدنيا؟

– ما هو أطيب شيء في الدنيا؟

– ما هو أزعج شيء في الدنيا؟".(8)

يكثر في رواية "كان الجرح وكان يا ما كان" ورود الأسئلة، وهي وسيلة لإعمال الفكر وتوضيح الأبعاد المختلفة وفقاً لطبيعة وجوهر كل سؤال، وبعد أيام من معاناة الوزير بسبب جهله الجواب الشافي، وبعد نقاش دار مع ابنته تخبره بالإجابة، وهنا تؤدي البنت دور شهرزاد

في ألف ليلة وليلة، حيث تكون منقذة لرأس أبيها من القطع بسيف الجلاّد: "في الصباح قالت البنت لأبيها الوزير: قل لمولانا السلطان إنَّ أحلى شيء في الدنيا هو التقاء عسيلة الرجل بعسيلة المرأة، وأنَّ أطيب شيء في الدنيا هو الخبز، وأنَّ أزعج شيء في الدنيا هو الكرّيطة".[9] ثم يورد الراوي شرحاً تقدمه الفتاة لأبيها الوزير عن أسباب كون الجنس والخبز والآلة على التوالي أحلى وأطيب وأزعج شيء في الدنيا، ثم يخلص الراوي إلى القول: " لقد عرفت بنت الوزير كيف تنقذ أباها من طغيان السلطان كما عرف شعب الجزائر كيف يخاطب الاستعمار باللغة التي يحترمها لغة الرّصاص".[10]

من هنا يبرز البعد الخفي للحكاية الشعبية، فهي تسلية للمرضى عن همومهم، وهي تقوية لعزائمهم من أجل الشفاء لمواصلة الكفاح المسلّح والانتصار على الأعداء، كما أنَّ الراوي من خلال توظيفه لبعض الآراء والحكم الشعبية يقوم باستعراضها، ثم يبرز ما فيها من جوانب صحيحة وأخرى خاطئة، بأن يقوم بذكر الحدث وأبعاده المختلفة، فيتحدَّث مثلاً عن الدّخّان، ويبيّن أنّ الأجداد في منطقة (وادي ريغ) لا يرجعونه إلى مظهره الواقعي وإنما يلبسونه ثوب الأسطورة، ففي زمن الرسول– صلى الله عليه وسلم– كما يزعمون كان الدخان نبتة مباركة يتداوى بها فعمد إبليس – بعد عجزه عن الحصول على أي نصر على محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى الدخان وبال على النبتة الدواء فقالوا الدواء خان، أي بطل مفعوله ويؤكد الراوي بأنَّه لا يمكن لأي منطق أن يقنع شيخاً أو عجوزا من الأجيال الماضية بأنَّ هذا غير صحيح تاريخياً، وأنَّ القضية ليست إلا مجرد أسطورة محكية، وهو يقدم لنا هذه الصورة التاريخية الشعبية ليعترف لنا بأنَّه يستعذب الدخان[11].

وفي موضع آخر من الرواية يوظف الحكاية الشعبية (بقرة اليتامى) محاولاً تقديم إيحاءات رمزية تعكس حالة الجزائر آنذاك من خلال الاستغلال والظلم الذي يمارسه الاستعمار الجاثم على صدر الوطن الغالي من جهة الواقع السياسي والاجتماعي، ومن جهة ثانية من خلال تسلط زوجة الأب في حكاية بقرة اليتامى، وتفننها في المكر والظلم والكيد لربيبيها (محمد وخضرة) وتضامن ابنتها معها، والراوي هنا يعبِّر عن سوء أخلاق ابنة زوجة الأب ومطابقتها لأمها في الشّر والمكر من خلال المثل الشعبي بقوله: "لأنَّ كلام الأوائل يقول: "رد القدرة على

فمها تطلع البنت لأمها".[12] فهو يرى أنَّ زوجة الأب لن تجد أفضل من ابنتها الشّريرة واستدلّ على الشر الكامن في قلبها بكونها عوراء، وذلك جعل قلبها مملوءاً بالحقد والحسد والشر، وإن كان القياس ليس صحيحاً في كل الأحوال فليس كل أعور بالضرورة شرّيراً، ولكن مسار الحكي يبيّن كيف أنَّ زوجة الأب قد استعانت بابنتها من أجل معرفة سرّ بقاء (محمد وخضرة) على قيد الحياة على الرغم من أنّها لا تطعمهما وعلى امتداد حوالي عشرين صفحة من الرواية يتيح الراوي لأحد المرضى الفرصة ليقوم بسرد الحكاية الشعبية (بقرة اليتامى) ويبيّن كيف تحوّل محمد إلى غزال يتلهّف أصحاب السّكاكين على ذبحه، واختيار اسم محمد هنا ليس صدفة بل هو رمز للهوية العربية الإسلامية وما شابها من محاولات المسخ والطمس من قبل الاستعمار الغاشم، أمَّا اختيار اسم خضرة فهو رمز للجزائر العربية الجميلة وكيف احتالت زوجة الأب المتمثلة في فرنسا على غرس ابنتها العوراء (اللغة الفرنسية) مكانها، وكيف أنها تآمرت على (خضرة) لتسرق منها زوجها السلطان وتحلّ محلها إلا أنَّ السّلطان سرعان ما تفطن للمكيدة وقام بقطع رأس العوراء المحتالة وأرسله إلى أمها وحرر زوجته خضرة من المكيدة التي وقعت فيها.وهكذا يحاول الراوي التسلية والترفيه عن الجرحى والمرضى مع ممارسة إسقاط على واقعهم ،وواقع الجزائر المكافحة فهي أيضا يمكنها في النهاية أن تقطع الأغلال وتفك القيود وتطهّر البلاد من التشويه والمسخ الذي طال مقومات المجتمع الجزائري.

إنّ السائحي لا يكتفي بصيغة معينة ووحيدة في خطابه الروائي، فتارة يكون المرسل للخطاب مفردا "عدت إلى قاعة المستشفى لما سألني المريض الذي بجانبي عن الذي مات اليوم قائلا الموت، الموت، إنها الحرب".[13] فهنا يتحدث الراوي عن طبيعة الحدث المتمثل في الحرب وما فيها من قتل وسفك للدماء، ويشير إلى طبيعة الحياة في المستشفى وما لثنائية الحياة والموت من تبادل للأدوار، وتارة أخرى يتكلّم المرسل للخطاب بصيغة الجمع، "ونحن بطبيعة الحال دخلنا معركة التحرير لكي يصبح شعبنا حراً مستقلاً، ولكي يجد هو بدوره طريق الخير والسعادة".[14] فالراوي حدّد طوراً وحدة الهدف الذي يربط المصير المشترك لهؤلاء الثوار الجرحى ولغيرهم من الثوار ومن أبناء الشعب الجزائري، فالثورة والحب الوسيلة الوحيدة التي

ستحمل الخلاص للجزائر وأبنائها، وطوراً آخر يجعل الخطاب يتشكل من تلاقي أطراف عديدة من خلال الحوار وتبرز أهمية الحدث حينئذ كما يلي:

"ليس هذا هو المهم الآن.

– وما هو المهم إذن؟

– أن نواصل الحرب إلى أن نتغلب على الموت.

– الحق معك لابد أن نواصل الحرب كل الحرب ،فحرب التحرير قضية أساسية لرد اعتبار الإنسان المسحوق وكرامة الشعوب المستضعفة".[15] إنّ الراوي يركّز على طبيعة الحدث المتمثل في الحرب لما لها من أهمية في تقرير مصير الشعب الجزائري، لقد تغيّرت صيغ الخطاب إلا أنّ الحدث ظلّ ثابتا لا يتغير، وفي هذا إشارة إلى أن الغاية من الحرب تجسّدها الحرية التي يسعى جميع أبناء الوطن إلى التضحية من أجل تحقيقها، وإلى جانب تغيير صيغ الخطاب يقوم السائحي بتغيير مسار الحكي من السرد النثري إلى الحكي الشعري عن طريق التّذكر مثلما هو الحال في المقطع الآتي "ذكّرني هذا في موقف سابق سجلته في قصيدة بعنوان " أرض الدّماء " فأخذت أستعيد مقاطعها الأولى:

في غفوة من حارس الأوضاع

دلف الدّجى النامي من الإقطاع

فعتا على الأوطان يفتك ناقما

متكالبا كالهول في الإفـــزاع".[16]

إنّ الغرض من تغيير مسار السرد من النثر إلى الشعر إبرز قضية أساسية وتتمثل في كون السائحي في شعره ونثره يناضل ضد الطغيان والجور والاستعمار، ويتكرر تغير مسار السرد من النثر إلى الشعر في صفحات أخرى من الرواية مع محاولة إبراز الارتباط بالأرض التي ولد عليها، ونشأ وترعرع فوق ثراها الغالي، كما نجد الاستشهاد بالقرآن الكريم لإبراز الصراع من أجل الوجود وإثبات الذات،كوصف أهمية الماء بالنسبة لسكان الصحراء، والتأمل والبحث عن الحقيقة والاطمئنان كما في قصة سيدنا إبراهيم وقضية إحياء الموتى.[17]

إن رواية "كان الجرح وكان يا ما كان" فضلا عن تضمنها لأحداث واقعية – الثورة وما فيها من جراح ودماء – وأخرى مستمدة من الحكايات الشعبي–بقرة اليتامى– فإنها قد تضمنت عدة مواقف سياسية وحضارية تبرز الصراع بين الشرق والغرب، حيث يبيّن الراوي صعوبة التوفيق بين الشيوعية والرأسمالية ،ويصل الصراع الحضاري إلى ذروته حين يحلق البطل ذقنه بعد مكوثه بالمستشفى مدة من الزمن ،ويتساءل عن مدى الارتباط بالغرب من خلال منتجاته وأدواته المصنعة، ويطرح سؤالاً جوهرياً بالمناسبة "ما هو مصيرنا إذا قررنا الانفصال عن الغرب؟ وبتعبير واقعي إذا أصبح الغرب غير متيّم بنا حينما يجب أن نقطع عليه أنهار العسل والسمن التي يتشهاها في أرضنا التي تنبع من جبالنا وصحرائنا".[18] وإلى جانب هذا الصراع الحضاري نجد الكاتب يميل إلى تطعيم روايته بالألغاز والأحاجي والحكايات الشعبية، ويبدو أن الغرض المباشر من هذا الترفيه عن المرضى في المستشفى حيث كان البطل يتابع علاجه، بينما الغرض البعيد فيتمثل في إعمال الفكر والوصول إلى معرفة الحقيقة وعدم الاكتفاء بتقبل الواقع كما يبدو من ظاهره، ومحاولة الغوص في أعماقه ومعرفة أسراره وخباياه، ويبقى تمظهر الطابع الحكائي الشعبي في رواية السائحي بارزا؛ ذلك أنَّه يحاول أنْ يستعرض بعض الحكايات ملمحا إلى أبعادها وآراء الناس فيها، ومن ذلك ذكره للجانب التاريخي الذي يكشف عن سبب تسمية أحد الأولياء الصالحين باسم بوحنية، فيروي أنّ شيخاً كبيراً كان لا يستطيع صعود النخل، وذات يوم قدم عليه ضيوف فاحتار كيف يكرمهم وليس عنده من الزاد ما يؤدي به واجب الضيافة فانحنت النخلة أمامه وهو جالس فقطف منها ما يكفيه ثم عادت كما كانت عليه.

إنّ الكاتب في نهاية المطاف يقوم بتوقيع خاتمة روايته بحكاية شعبية يلمح من خلالها إلى عدم التفاهم وغياب العدالة بين الإخوة من خلال قصة أخوين أحدهما سلطان والآخر فقير محتاج، وكيف أنَّ ابنة السلطان تتعلق بابن عمها ويتفقان على الفرار وبناء حياة جديدة، فيتجشمان المشاق و يتحدّيان الصعاب التي تواجههما بالتعاون والإخاء والمحبة، وفي هذه القصة إشارة خفية إلى أنّ أبناء الجزائر سواء كانوا أغنياء أم فقراء، رجالا أم نساء قد التفّوا حول داعي الجهاد ولبّوا النّداء لتحرير الوطن من نير الاستعمار الغاشم، وتحقق النصر في النهاية وعادت الأرض حرّة عربية.

إنّ مكان الرواية في عمومه يتمثَّل في غرفة بمستشفى مدينة الكاف التونسية، ويمكن تصور ما يمكن حدوثه داخل المستشفى فما بين الألم والأمل والحياة والموت تمضي الأحداث إلى نهاية الرواية، أما ما يمكن وجوده داخل المستشفى فهي جزئيات المكان ؛النوافذ ، الأسرّة، الأبواب...إلخ.

يقوم السارد بوصف الأحداث ويتطرق إلى جزئيات المكان بشكل دقيق ومباشر: "ها هو ذلك المريض الذي تحت النافذة المفتوحة يستيقظ، إنَّه يغادر سريره ويمشي معتدلاً وها هو الباب يفتح ويدخل منه ممرض يدفع أمامه عربة صغيرة"[19]، ففي المقطع السابق وصف دقيق لإيقاع الحياة داخل غرفة من غرف المستشفى توحي بمشاهدة الأحداث، وهذا ما يتطابق مع القول الذي يرى أنَّ "أجود الوصف ما يستوعب أكثر المعاني الموصوفة حتى كأنّه يصور لك الموصوف فتراه نصب عينك"[20]، وينتقل الراوي من وصف حاله وحال المرضى داخل المستشفى إلى استدعاء صور من الذاكرة ، فيتحدث عن ديناميكية الحياة في الجزائر،وكيف يساهم الجميع في صنع التاريخ جنودا وعمالا وطلبة ،وفلاّحين وفلاّحات ويتذكر الواحة الجميلة التي نشأ فيها مبديا إعجابه بإتقان الصنع من طرف الخالق وتفاني الإنسان في خدمة الأرض "إنّها القوة البشرية التي جعلت في قلب تلك الصحراء القاحلة غابات وارفة الظلال" [21] ثم يعود إلى وصف العناصر المكانية المحيطة بالمستشفى متمثلة في أشجار الزيتون التي تظهر من النافذة ولا يخفى على أحد ما للمناظر الطبيعية من أهمية في بث الانشراح والسكينة في نفس الإنسان، وبشيء من الوصف للحدث يبين لنا الكاتب مشاعره تجاه المكان مبرزا لنا معاناته الذاتية جراء الآلام والجراح، يقول: "تهاطل المطر بعنف في الخارج فأعادني إلى قاعة المستشفى مثيراً في نفسي قشعريرة البرد الشديد ومجسداً أرقي وسط هؤلاء الإخوة الذين يغطون في نوم عميق".[22] فالمطر كان سبباً في إفاقة الكاتب من أحلامه وإدراكه لواقعه، فهو يتواجد في المستشفى حيث يقضي فترة علاج ونقاهة وقد قام بوصف حاله وصفا يتسم بالواقعية، ويتكرر في الرواية ذكر كلمتي (الصباح، الليل) و لا يخفى على أحد ما تحملانه من دلالة على تعاقب الليل والنهار ، وتعدد الأحداث ونموها ، وتطور المواقف وتغيرها أو ثباتها تبعا للمعطيات المختلفة.

ويأتي ذكر الزمن في رواية (كان الجرح وكان يا ما كان) من خلال توظيفه لعبارات وجمل تتضمّن دلالات زمنية مثل: "مضى الليل، إنه الصباح، يقبل الضحى، أفي كل صباح ومساء، أمَّا الليل، ثمانية أيام مرت، قضيت الليل كله، شطرا من صباح هذا الأحد، مرت ساعات الصباح، الآن الساعة بين الرابعة والخامسة، قضيت ثلاثة أيام بلياليها، ثمانية أيام مرت، يزورني يوم الخميس،فصل الخريف، أيام الصيف،ليالي الشتاء، من الصبح إلى ما بعد العصر،قضيت بقية الليل، يوم الجمعة، الأسبوع الثاني، في الضحى، في العشيّة"، وفي بعض الأحيان يختزل الكاتب فترة زمنية لا بأس بها في عبارة واحدة مثل قوله: "مرّ الليل على هذه الصورة إلى أن طلع صباح جديد".[23] وفي بعض الأحيان يعمد الراوي إلى الاسترجاع ويظهر العبارات الدالة على ذلك في بداية الجمل مثل قوله: "ثم أتذكر، يطير بي الخيال، لقد تذكرت"، ويمضي في سرد أحداث مضت ليشكل لنا الموقف الروائي العام، والذي يؤرخ لحياة الراوي وللثورة التحريرية، وللحركية الثقافية والفكرية للمجتمع من خلال الحكايات الشعبية ومحاولة إسقاطها على ما كانت تعيشه الجزائر من ثورة وكفاح فينطلق إلى الحلم ليعبر عن الواقع من خلال الرؤيا بقوله: "كانت الرؤيا تدور حول عرس ،وكان العروسان لابسين قميصين أحمرين ،وعهدي بثياب العرس بيضاء ،وكانت العروس رائعة فاتنة غبطت عليها أخي الذي اختارها لحياته".[24]

لا يخفى على المتمعن في الرؤيا السابقة أنَّ العروس هي الجزائر، وأنّ الدماء التي سقيت بها الأرض الطيبة حتى تصبح حرة مستقلة، وتبدو لنا رغبة كل شاب جزائري آنذاك في التضحية بنفسه ودمه من أجل الجزائر، ويعمد الراوي أخيرا إلى تلخيص فترة إقامته في المستشفى، مبرزاً خواطره وآراءه بقوله: "اليوم ختمت تسعة عشر يوماً من حياتي ربطتها آلام الجراح بدمائها الطاهرة الدافقة من أعماق نفسي وألبستها صبيانية المستشفى ثوبا ضاحكا مشرقا رغم الدماء والآلام".[25]

الخلاصة :

يمكن أن نخلص مما سبق إلى أنَّ وصف الكاتب لما حدث له بأسلوب واقعي مزج فيه بين مكوثه في المستشفى وما حدث خلال إقامته من حكايات وعلاقات بينه وبين المرضى الآخرين، وبث فيه ما كان يدور بخلده من أفكار وأحلام وآلام وآمال، أنه يندرج ضمن رواية السيرة الذاتية؛ رغم أنَّ الكاتب لا يهتم كثيراً بالتفاصيل الصغيرة، ويترك للقارئ الفرصة لقراءة واكتشاف ما بين السطور، وفهم الرموز والرؤى والحكايات الشعبية ودلالاتها، ومدى انعكاسها على واقع الجزائر، وواقع الشعب الجزائري زمن الثورة.

إنّ وصف السائحي الواقعي للأشياء يتناول الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين فيمكن القول أنه لون من التصوير.[26] إنه محاولة لرصد إيقاع الحياة في المكان الذي وقعت فيه، والزمان الذي استغرقته في حدوثها بكل مشاهدها وتفاصيلها، وفي الأخير نشير إلى أن الكاتب نفسه يعترف في بداية عمله هذا بأنه محاولة في كتابة الرواية، لأنّها لم تلتزم بكلّ فنّيات العمل الرّوائي الجديد.

هوامش البحث:

1- فيصل دراج- الرواية وتأويل التاريخ (نظرية الرواية والرواية العربية) المركز الثقافي العربي. المغرب. ط1. 2004.ص137.

2- محمد الأخضر عبد القادر السائحي- كان الجرح وكان يا ما كان-رواية-المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر-1984-ط1-ص7.

3- المصدر نفسه- ص8.

4- المصدر نفسه- ص 8.

5- المصدر نفسه – ص11.

6- المصدر نفسه- ص15.

7- المصدر نفسه- ص 19.

8- المصدر نفسه – ص20.

9- المصدر نفسه- ص 22.

10- المصدر نفسه- ص 24/23.

11- المصدر نفسه- ص 32.

12- المصدر نفسه – ص 51.

13- المصدر نفسه – ص58.

14- المصدر نفسه- ص 59.

15- المصدر نفسه- ص60.

16- المصدر نفسه – ص 44.

17- المصدر نفسه- ص46...80

18- المصدر نفسه- ص61.

19- المصدر نفسه – ص11.

20- أبو هلال العسكري- الكتابة والشعر-تحقيق :علي محمد البجاوي ، محمد الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية-لبنان-1986-ط1- ص 128.

21- السائحي-كان الجرح وكان يا ما كان – ص 26/25.

22- المصدر نفسه- ص 45.

23- المصدر نفسه – ص114 .

24- المصدر نفسه- ص 111.

25- المصدر نفسه- ص115.

26- سيزا أحمد قاسم – بناء الرواية- دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- ص 79.